الشخصيات البارزة التى عرفتها

بقلم الكاتب الالماني اميل لدويج

عربها بتصرف الاستاذ محمد أمين حسونه

« يزور الكاتب المؤرخ اميل لدوبج مصر فى الشهر الحالى ليضع مؤلفه النفيس عن وادى النيل . وقد رأينا بهذه المناسبة أن ننقل الى قراء (للعرفة) مقالا نشرته مجلة Current History الامريكية عن الشخصيات البارزة التى أتيح له معرفتها وسبر غورها »

خطر ببالى ذات شتاء أن أمضى شطراً منه فى منطقة الألب لأستمتع بدفء ولذة الجبال في أوقات الشتاء ، وكان مما استرعى نظرى هناك ، وفى منطقة « التيرول » تلك الكنيسة الفخمة الواقعة على الرابية المشرفة على جبال الالب ، والتى اشتهرت منذ القرون الوسطى ، بأثرية ناقوسها وضخامته ، فلما خطر ببالى زيارته صعدت الى القبة للتفرج عليه . فتملكتنى الدهشة والعجب . . إذ كيف أن صورة « لشيلر » يعلقونها إلى جانب صور القديسين الأبرار كتذكار لمقطوعته الخالدة « نشيد الناقوس » ؟ « شيلر » الكاتب الشاعر عدو الكنيسة الكاثوليكية ، يجعلونه رمزاً للقداسة والخلود ؟ ولكن لاعجب فشهرته كشاعر ومخلد لذكرى « ناقوس الكنيسة » هى التي حدت بهم إلى وضعه فى مثل هذا الموضع الذى يرتكز عليه . وهكذا تكون الشهرة حامية للاغلاط . إن غلطة « كوك » المشهورة رفعته إلى مصاف العظماء ، وقذفت باسمه الى أول قائمة المكتشفين خالدى الذكر ، ولم تكشف لعبته إلا بعد مرور فترة طويلة من الزمن .

إذن فالشهرة ليست بمعناها المعروف « العظمة » . فأن شهرة الانسان لاتهدينا إلى تقدير مناحى عظمته فى ثوبها الحقيقى ، وإلا كان من حقنا أن نفاخر « بشارلى شبلن » عن « برجسون » مع أننا كمؤرخين في عنقنا دين نجب تأديته للاجيال المقبلة ، هو تصحيح الأخطاء التي تلابس أولئك الذين يستحوذون على الشهرة من طريق المخادعة ، ومع كل فهناك أسماء كثير من الرجال حازوا الشهرة والعظمة معاً ، وكان تاريخ شهرتهم كسجل للحوادث التي وقعت فى عهدهم . كرمبراند ، وواشنجتون ، ونابليون ، وجوت . إذ أن تاريخ كل فرد من هؤلاء يهدينا إلي تاريخ عصورهم . وتأثير البيئة التى نشأوا فيها فى تكوين عظمتهم ونبوغهم الفذ .

وقد ما ذكروا انه ليس من حق الانسان ان ينعت نفسه « بالسعادة » وهو لايزال حيا يرزق ! ! فاذاً جاز لنا ان نحكم بأن حياة الانسان إنهى الا رواية تمثل مشاهدها على المسرح

في مكنة « فصل خامس » منها أن يطفىء أنوار فصول أربعة سبقته ، ومن المحتمل أن تكون هذه الفصول الأربعة اشد روعة وتأثيراً من الفصل الخامس . وعلى ضوء هذه النظرية لا يمكننا أن نحكم على رجل ما ، ولا أن نتعت رجلا ما اشتهر في حياته بالعظمة ، ولا أن نخلع عليه هذا الثوب مادام حيا ، فربما كان فضفاضاً عليه ، وربما حدث في أخريات ايامه ما جعله يشوه هذه الصفحات الناصعات التي تكون قد ملأناها حمداً وثناء عليه.

إن سرعة انتشار الأخبار تمكننا من معرفه اسم أى رجل اشتهر في أقل من لمح البصر فاسم « ليندبرغ » قاهر الجو ، عرفه في ليلة واحدة خمسمائة مليون شخص من اقاصى منشوريا الي جنوب افريقيا واستراليا . كذلك كان الأمر « لكوك » حين نسب لنفسه اكتشاف القطب الشمالى ولو أن خدعته عرفت فيما بعد ، ولكن بعد فوات الفرصة وبعد ان رسخ اسمه في قلب كل انسان كمكتشف خالد الذكر ! !

إن الآلة التى تخرج لنا العظماء اليوم غيرها قبل خمسين عاما مضت، فليس الرجل العسكرى هو الذى ينال إعجاب الشعوب فى هذا الجيل او فى الاجيال المقبلة ، أو ان من حقنا تدوين اسمه فى سجل العظماء كما فعل قيصر ، ونابليون ، والاسكندر ، كلا !! إن الشعوب اصبحت لاتتهافت على معرفة اسم القائد المنتصر فى الميدان ، ولكنهم يتساءلون عن اسم الآلة الجهنمية التي احرزت التغلب ، وخفقت فوق ربوعها بنود النصر . خذ اسم الماريشال هيندنبرج مثلا فليس يتطرق الى الذهن ان شهرة اسمه راجعة الى عظمته الحربية وحدها ، بل لذلك الاعتقاد السائد فى النفوس ، وهو اعتباره « كأب للشعب » وأنه رجل الساعة فى المانيا . والاعجاب اليوم لا يحوط الجيوش الظافرة في ساحات الوغى ، وانما يحوط ذلك «الجندى المجهول» الجامع لرفات الانتصار والانكسار ، حتى إن الزهور وباقات الرياحين اصبحت تقدم اليه من اكبر الملوك الى احقر طبقات الدهماء كدليل على الاحترام ! !

ان اسماء وشهرة كبار القواد الذين خاضوا غمار الحرب الماضية ، وكان النصر حليفهم فى المعارك الكبرى ، قد تضاءلت وكادت تتلاشى . كذلك سيكون الامر مع بلسودسكي ومصطفى كمال وموسوليني ، فسوف يصبح اسم كل منهم خرافة سائدة فى افواه الاجيال المقبلة . إنك لاتعلم مقدار ما يحيط بكل بطل منهم من الخرافات والاعتقادات الباطلة لدى أممهم ، لقد رفعوهم الي ما فوق مصاف الآلهة والقديسين .

من يحرز الشهرة اليوم ؟ إن رجال الالعاب الرياضية وابطال الملاكمة هم وحدهم الذين يسودون الشهرة دون غيرهم ، كذلك نجوم السينما : اما الاولون فلأن الجماهير تساهم بقسط وافر من الشهرة التى يحرزونها ، وذلك من طريق المراهنات فى مبارياتهم ، واما رواد السينما فيشاطرون ايضا في الأعجاب بالكواكب التي تظهر على الشاشة الفضية بملابسها الزاهية .

ولأن هؤلاء وهؤلاء يملأون فراغ قلوب الجماهير بالعطف عليهم في كل آن ، ولأن ملامحهم وصورهم مطبوعة في كل قلب وفي مخيلة كل ناشيء بفضل الصحافة المصورة التي تمهد لهم سبل الشهرة عن طريق الدعاية . إن كاروزو كان أشهر من غيره من المغنين في الزمن السالف لفضل « الفونغراف » في تخليد صوته .

إن مهمة المؤرخ دقيقة وعسيرة في هذا العصر ، فالمؤرخ لايعتمد على الشهرة وحدها في تدوين العظمة كشهرة ، وإني كواحد من ابناء هذه المهنة ، لا يحق لي مطلقا ان أخدع نفسي وقرائي باثبات الشهرة كعظمة ، اني لا أجد الآن موسيقيا بعد « مولر » واذكر « ليبرمان » في أول قائمة الفنانين العالميين ، واسائل نفسي وقرائي عن « كاتب القرن الحالي » الذي يحق له احراز هذا اللقب الجليل والذي له الفضل في تربية ملكة الذوق لجيلنا الحاضر فلا أجد غير « برنارد شو » كما كان فولتير كاتب القرن الثامن عشر . نعم ان هناك كتابا وشعراء يفوقون « شو » سواء في قوة الاخراج أو متانة الابتكار والتراكيب ، وأذكر منهم دانتزيو ، وأبمان ، ورولان ، ومان ، وهمسون . ولكن « شو » قد أثر بتعاليمه ومداعباته واستجوازه على لب القاريء أكثر من سواه .

واذا خطر ببالنا ان نتكلم عن السياسة . حق لنا أن نقول بأن رجالها قد احتضروا واختفوا من الأفق سراعا ، ويلسن ، ولينين ، وكليمنصو ، اما « لويدجورج » فشيخ رجال السياسة الحاليين « وموسوليني » اخطرهم واصغرهم ، ولكن اذا تحدثنا عنه كسياسي أيحق لنا ان نتعته بالبطولة الخالدة ، والعظمة الحقة ؟ كلا ! ! ان الحكم المستقبل وحده . وموسوليني اليوم يؤدي دوره على خشبة المسرح ، فقد انصبت الانوار عليه من كل جانب فأخفت الرتوش و « المكياج » الذي يخفي شخصيته الحقيقية تحته والتي تظهره أمام الجماهير في ثوبه الخيالي كمعبود للشعب . انه لا يزال في الفصل الثالث من الرواية التي تعهد بالقيام بدور البطل فيها ، وليس لأحد ان يتكهن عما اذا كان الستار سينسدل عن تصفيق واعجاب او استهزاء بتمثيله .

واذا ذكرت سياسي الجيل الحاضر فاني اتحدث عن « فينزيلوس » اليوناني « وما زاريك » التشيكوسلوفاكي : فالاول سياسي محنك ، والثاني حكم بني وطنه لعشرين عاما خلت ، كما ان الزعماء السياسيين المضطهدين — لسان حال الشعوب المظلومة — قد احرزوا الاعجاب بمبادئهم الاشتراكيه : وضربوا أحسن الامثال لأممهم في التضحية ، وأخص منهم بالذكر « مكسويني » محافظ كورك الذي ذهب ضحية الاخلاص ، « وغاندي » رجل الهند — بل الشرق — الوحيد .

نترك ذلك جانبا لنتحدث عن رجال العلم والصناعة . فالجيل الماضي كان حافلا بهم ، ما جيلنا الحاضر فمفتقر الى الكثير من شخصياتهم البارزة — فانه لا يوجد اليوم علماء للآثار القديمة جديرون بأحراز هذا اللقب الجليل ، حتى ولا فلاسفة ، ولا مؤرخون يستطيعون أن يرووا ظمأ الجماهير المتعطشة الى نظريات حديثة ، ولا علماء في الاقتصاد

والتشريع كعلماء القرن الماضي من الانجليز أو الالمان .

إن عالمنا اليوم لا عمل له سوى الجمع بالنسبة الماضي، والتمهيد بالنسبة للمستقبل : ومع كل فهناك شخصيات برزت في بعض الصناعات التي يفتقر العالم اليها . «فبركلند» و «آيد» النرويجيان انتشلا شعوبا من شر المجاعات باقدامهما على استخراج النيتروجين من الهواء ، و « هابر » و «ارنست» و «رينوس» اول من احدثوا نظريات جديدة بشأن السوائل ، كذلك « بور » الدانماركي ، وبلانك » الالماني ، والى جانبهم تأخذ « مدام كوري » مكانتها العالمية كامرأة واصلت البحث والدرس بعد موت بعلها بعشرين عاماً . والمكتشفون وعلي رأسهم « نانسن » و « شاكلتون » أثمن ما نملك اليوم بين ايدينا من ذخيرة .

أما علماء النفس فعلى رأسهم « فرويد » الذي أيقظ بنظرياته الحديثة شعور ألوف المثقفين ويجيء دور « انشتين » شيخ علماء الحكمة الطبيعية ، والذي أزال بنظرياته الكثير من الاعتقادات التي كانت راسخة في أذهان علماء القرون الماضية، وأظن أن روح نيوتن ترقص طربا في صندوقها بوستمنستر تقديرا و إعجابا بنبوغه .

والصناعة : فهناك «مركوني» الايطالي الى جانب «اركو» و «اخوان رايت» الى «فورد» الى جانبهم أبطال الصناعة، والذين لهم الفضل في ابتكار اللاسلكي والطيارات و بناء الكباري وحفر الترع وتشييد المصارف ومحطات الكهرباء والخزانات . ولكن أين هم أولئك الأبطال ؟ من هم أساتذة الصناعة والفن اليوم ؟ من يعرف منشأ جسر البثون أو ارث الخامس أو خزان اسوان على النيل احدى عجائب الدنيا الحديثة ؟ من الصعب أن نعرف كل هؤلاء الابطال ، إذ أن الشركات قد خيمت على جهود الافراد وجهود الابطال قد أدمجت في أعمال الشركات .

وعندما تنحدر الشمس الى المغرب ونجد مكانها النور الكهربائي !! لمن نتوجه بالشكر كل ليلة على هذه المنة ؟ لمن الفضل في سرعة اتصال الامم بأسلاك التلغراف ؟ لمن الفضل في نقل الرسم والصوت من مكان قصي فوق ثلوج سيبريا الى عبيد السكونغو مثلا ؟ إن احداً لم يستطع ولم يتمكن من إذلال العلم وتسخيره في اغراضه ليفيد به المجتمع كما أفاده الخالد الذكر «اديسون»

وهكذا نأتي في النهاية لنشيد بذكر أكبر عالم نظري الى اكبر مخترع عملي اولهما الماني والثاني امريكي : كلاهما نشأ فقيرا معدما ليس مديناً لأحد الا لعبقريته ونبوغه وهما «ايماتيس» الذي وهب الثقافة وحرية الفكر الى العالم و « برونو مانيس » الذي اختطف النور من الآلهة ليهديه الى البشرية تنير به غياهب ظلماتها . هما : «ايتشتين» و «اديسون»

محمد امين حسونه